مصر والأقطار العربية

دولة واحدة وجنسية واحدة وجيش واحد

المراجع الاجنبية

E. de Cadalvène et v. Barreault: Histoire de la guerre de Mehemed Ali contre la Porte Ottomane.

Georges Douin : La Massion du Baron de Boislecomte

Weygand : Histoire Militaire de Mohamed Ali et de ses fils.

Sir Samuel Baker : Ismailia.

Chaillé Long : L'Egypte et ses provinces perdues.

Junker : Voyage en Africa.

Paton : A History of the Egyptian Revolution

Paulitschke : Le Harar sous l'administration égyptienne.

Mostafa Amer : Some Unpublished Egyptian Maps of Harrar.

المراجع العربية

الدكتور حسن كمال : مصر والسودان

احمد باشا كمال : الحضارة القديمة

محمد كرد على : خطط الشام

الدكتور ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان

فؤاد صروف : اسماعيل المفترى عليه : «ترجمة عن بيير كرابيتس»

عزيز خانكى : الذكرى المئوية لواقعة تزيب

الأمير عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء

الدكتور محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية

حسين رشدى باشا : بحث فى حالة السودان

عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية

الدكتور عبد الرحمن شهبندر : الامبراطورية العربية : هل يقدر لها العودة الى الوجود ؟

الدكتور يوسف قابيل : التطبيق القانونى للحلف العربى الممكن

الدكتور يوسف هيكل : نحو الوحدة العربية

دينيس ريفوير : العرب الحقيقيون فى بلادهم

والمراجع الأخرى المشار إليها فى بابى «أهداف العمل لمصر» و «مصر مقبرة الغزاة».

من الحقائق التاريخية المستندة إلى اعتبارات جغرافية وطبيعية ثابتة ان الشعوب التى تقطن شرق البحر الأبيض المتوسط والتى تسكن على شاطىء البحر الأحمر كانت تتجانس دائما فلا تفرق بينها إلا اعتبارات مفتعلة تعتدى على الرغبة الغريزية الكامنة بنفوس تلك الشعوب فى التقارب بل الاندماج . . فالحيز من الأرض الذى تشغله سوريا — وقد كان إلى عهد قريب يشمل سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن — ليس منفصلا من الوجهة الجغرافية الفنية — عن أفريقيا ، بل أنه يقع المنطقة الجغرافية الشاسعة التى يبلغ طولها أكثر من خمسة آلاف كيلو متر والتى تبدأ من شمال نهر زمبيزى . وبحيرة « نياسا » . فسهول أفريقيا الوسطى تنتهى فى الواقع عند شمال سوريا . أى عند سلسلة جبال طوروس[1] ، فلا توجد حواجز جغرافية تفصل بين المنطقة الواقعة عند منابع النيل فى أفريقيا والممتدة إلى جبال طوروس فى شمال سوريا

والتوافق بين شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط — وهو داخل فى المنطقة الجغرافية نفسها — يبدو واضحاً فى وحدة المناخ وهذه الوحدة فى المناخ تؤثر فى الحالة الاجتماعية للأفراد وفى الأعمال التى يزاولونها . وفى تكوين خلقهم أكثر من تأثير الأوضاع الجغرافية فهى تحدد مدى خصوبة أرضه وطبيعة محصولاته الزراعية . وهذا التوافق بين هذه الشعوب المتجاورة المتجانسة ، لا يقف فى سبيله اختلاف الدين . فالى يومنا هذا نلاحظ أن مسيحيي الشرق الأدنى أقرب إلى مسلميه فى عقليتهم وأنظمتهم

---

(١) Larouse Mensuel — كلة Syrie ص٩٥٦ العدد ١٥٣ — نوفمبر ١٩١٩

الاجتماعية منهم إلى مسيحيي الغرب [١]

ولقد رأت السياسة الاستعمارية أن تنشىء سيطرتها على الشرق وطرق مواصلاته بوضع الشاطىء الممتد من حدود مصر الغربية إلى الاسكندرونة تحت رقابتها المباشرة وتقسيمه إلى دول صغيرة حيث ركزت تلك السياسة الاستعمارية سيطرتها بالتحيز الأقليات فناصرت اليهود فى فلسطين . والمارونيين فى لبنان والأتراك فى سنجق الاسكندرونة . وتركت للمسلمين الأرض الملاصقة للصحراء فقط ! [٢]

ولكن هذا التقسيم المفتعل لهذا الجزء من العالم لم يلق نجاحاً قط . فان خلق دول صغيرة مواردها لا تكفى لكى تقف وحدها على ساقيها فى أسرة الدول . وعدد سكانها من القلة بحيث لا يمكنها من المساهمة وحدها فى النشاط العالمى . معناه الحكم على تلك الدول الناشئة بالضعف خصوصاً إذا تبينا أن كل دولة منها لا تشعر بالمبرر الجغرافى . أو التاريخى . أو الجنسى لفصلها عن شقيقتها المجاورة لها . التى تتكلم نفس لغتها . وتنتسب إلى نفس الجنس الذى تنتسب هى اليه . وتدين أغلبية شعبها بنفس الدين الذى تدين به هى .

ولقد حملت مصر — على مدى عصور التاريخ المختلفة — رسالة إقرار الوضع الطبيعى المنطقى السليم الذى يحتم جمع كل هذه الشعوب المتجاورة المتجانسة تحت لواء وحدة سياسية لا تنفصم عراها . وفطنت مصر منذ أقدم عصور التاريخ إلى أن سلامة هذا الجزء من العالم لا يمكن أن تتحقق إلا إذا كان البحر الأحمر بحيرة مصريه .

---

(١) Hans Kohn : Western Civilisation in the Near East P. 36 .

(٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

١ — فى عصر ملوك طيبة (٣١٩٧ — ٢٧٧٨ قبل الميلاد) غزا ملوك الأسرة الأولى بلاد النوبة فأثبتوا أن المصرى الأول كان يؤمن بوجوب الاتجاه جنوباً إلى منابع النيل لضمان سلامته

وفى عهد الدولة القديمة (٢٧٧٨ — ٢٤٢٣ ق م) غزا الملك زوسر بلاد النوبة وتجاوز الشلال الأول جنوباً وغزا الملك سنفرو سوريا — المعروفة وقتئذ بفينيقيا — فكان أول مصرى فطن الى الحدود الطبيعية الشمالية لهذه المنطقة المكونة من مصر وسوريا . وأغار هو الاخر على النوبة جنوباً[١] . وغزا الملك سحورع بالأسطول الذى بناه — وكانت به مصر أول دولة بحرية فى التاريخ — شاطىء سوريا . كما غزا الصومال . وفى عهد الأسرة الثانية عشر (٢٠٠٠ — ١٧٨٥ ق . م) غزا الملك سنوسرت الأول السودان ووصل الى مابعد الشلال الثانى . وهناك من يقول إن حدود مصر قد امتدت فى عهد هذه الأسرة إلى ماوراء الخرطوم وإن المصريين أنشأوا عند التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق مملكة مصرية[٢] وجابت رسل هذه الأسرة فلسطين وسوريا . كما أن الملك سنوسرت الثالث وصل بجيوشه إلى شمال بيت المقدس وغزا الجزء الجنوبى من سوريا

وفى عهد الدولة الحديثة (١٥٨٠ — ١٠٨٥ ق .م) تابع أمنحتب الأول سياسة مصر التقليدية فوصل بالجيوش المصرية إلى ماوراء وادى حلفا وفتح سوريا . كما أن تحوتمس الأول وصل الى منطقة البحيرات التى ينبع

(١) حسن كمال — مصر والسودان مجلة « المقتطف » عدد ابريل ١٩٣٦ — وقد ذكر أن « أقدم رواية تاريخية وردت عن اخضاع المصريين للسودان مدونة فى حجر بالرمو » .

(٢) أحمد كمال « الحضارة القديمة » ص ٣٣٧ .

منها النيل[١] وعبر جبال لبنان وبلغ نهر الفرات. وقام تحوتمس الثالث بسبع عشرة حملة شيد بها الامبراطورية المصرية، وهى أقدم امبراطورية عرفها التاريخ، حوالى عام ١٤٥٠ قبل الميلاد فوصل إلى جبال طوروس شمالا ونهر الفرات شرقاً والشلال الخامس جنوباً، وقد فعل ذلك لا رغبة فى الغزو والاستعمار وإنما لأنه تبين — كما تبين غيره من فراعنة مصر — أن سلامة وادى النيل تحتم تحصين منطقة فى سوريا وكنعان وإنشاء «رأس جسر» tête de bont فى مدخل طريق الغزو بولاية حلب بين نهرى الفرات وأورونت كما تحتم موالاة إرسال جيوشهم إلى ماوراء برزخ السويس[٢].

ووصلت الجيوش المصرية فى عهد سيتى الأول إلى فلسطين وسوريا وضم رمسيس الثانى ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقى إلى مصر ووصل الى بيروت ونقش على صخر يطل على نهر الكلب مايدل على ذلك.

وفى العصر الصاوى استخدم نخاو الثانى الفينيقيين فى الأسطول المصرى فأبحر هذا الأسطول من ساحل البحر الأحمر ومر بالصومال وكينيا وغزا الملك إيريس سوريا بطريق البحر. واستولى على صيدا بعد معركة بحرية وخضعت له صور وعادت لبنان وسوريا تكونان وحدة سياسية

---

(١) Chaillé Long : L'Egypte et ses provinces perdues ، ويذكر الدكتور حسن كمال فى المرجع السابق أن تحوتمس الأول كان يلقب فى عهد أبيه أمنحتب الأول باسم أمير «كوش» وهو الاقليم الواقع جنوب وادى حلفا.

(٢) Alexandre Moret : L'Egypte pharaonique من سلسلة Histoire de la nation Egyptienne لجبريل هانوتو، وقد ذكر فى هذا المرجع أن شهامة المصريين قد حمتهم من غزوات الأمم الهمجية التى كانت تفكر فى غزو مصر من الشرق وأن المصريين قد نشروا حضارتهم فى أصقاع آسيا التى ضموها.

مع مصر . وفى عهد البطالمة (٣٢٣ — ٣٠ ق . م) تابع ملوكهم نفس سياسة الفراعنة وأدركوا أن الشرق الأدنى لن يكون آمناً إلا بادخال فلسطين وسواحل سوريا فى حدود واحدة .

٢ — وبعد دخول الإسلام إلى مصر تابع حكامها نفس السياسة التقليدية . ففى عهد الدولة الطولونية (٨٧٠ — ٩٠٥ ميلادية) سار احمد ابن طولون إلى سوريا ووصل الى دمشق وحمص ولم يقف إلا عند الحدود الطبيعية وهى جبال طوروس . وامتدت رقعة الحدود إلى نهر الفرات شرقاً. وفى عهد أبى الجيش خمارويه حاول عمال الخليفة العباسى فى سوريا نزعها وإعادتها الى سيطرة الخليفة الموفق فخرج القائد المصرى سعد الأعسر وتغلب على ابن الموفق ولم يقف بالجيوش المصرية إلا عند جبال طوروس .

ولما تمرد سعداً الأعسر وأعلن استقلاله بسوريا خرج خمارويه إلى سوريا وهزم سعداً وقتله ودخل دمشق عام ٨٨٦ . ولما أراد ابن أبى ساج حاكم الأنبار الانفصال عن مصر واجتاح سوريا مشى اليه خمارويه بجيش قوى وقاتله بجوار دمشق وهزمه ثم أجلاه عن سوريا فعادت جزءاً من دولة واحدة مكونة من مصر وسوريا .

٣ — وفى عهد الدولة الاخشيدية (٩٣٥ ـ ٩٦٩) خرج أبو بكر محمد الاخشيد لمحاربة محمد بن رائق والى فلسطين من قبل الخليفة الراضى بالله أبو العباس بن المقتدر وهزمه فى معركتى العريش واللجون على مقربة من طبرية وانتهت الحرب بامتداد الحدود إلى الرملة ولما اتصل بأبى بكر الاخشيد أن سيف الدولة الحمدانى استولى على حلب أرسل اليه جيشاً بقيادة أبى المسك كافور فلما انهزم أبى المسك سار أبو بكر نفسه فى جيش آخر وعقد الصلح بينه وبين سيف الدولة على أن تكون البلاد من حمص

إلى حدود جزيرة العرب وحدة سياسية تتبع سيادة واحده .

ولما تولى أنوجور أبو القاسم خرج أبو المسك كافورعلى رأس جيش مصرى لمحاربة سيف الدولة الحمدانى الذى كان قد استولى على دمشق فأجلاه عنها واستولى المصريون على حلب وطرسوس .

ولما تولى أبو المسك كافور دعى له على منابر المساجد فى مصر والحجاز وسوريا .

٤ — وفى عهد الدولة الفاطميه (٩٦٩ — ١١٧١) خضع الأمير الحمدانى حاكم سوريا الشمالية لسيادة المعز لدين الله حاكم مصر . ولما قاوم الاخشيديون الحكم المصرى فى سوريا الجنوبية . مشي اليها الجيش المصرى وضم دمشق وما جاورها . وخرجت الجيوش المصرية مرة أخرى إلى سوريا فضمت بيروت وعادت سوريا جزءً يتمم دولة واحدة مكونة منها ومن مصر ولما تولى العزيز بالله بن المعز أقيمت له الدعوة فى اليمن والحجاز .

ولما تولى الظاهر بن الحاكم بأمرالله سار الجيش المصرى إلى فلسطين وسوريا وأعادهما إلى الدولة المكونة منهما ومن مصر .

ولما تولى المستنصر استرجع الجيش المصرى دمشق وضم سائر بلاد سوريا الشمالية .

٥ — وفى عهد الدولة الأيوبية (١١٧١ — ١٢٥٠) سار صلاح الدين يوسف الأيوبى بالجيوش المصرية إلى دمشق فضمها ثم تابع السير إلى حمص وحماه وحلب . وعاد بعد ذلك فانتصر على ملك أورشليم فى مرج عيون فى الوقت الذى كان الأسطول المصرى يقاتل أمام شواطىء فلسطين وتبين أن رقعة الحدود الطبيعية لهذه المنطقة من الشرق الادنى

يجب أن تشمل بلاد العرب فوجه الجيوش المصرية إلى والى الكرك وأجلاه عن بلاد العرب .

وعاد بعد ذلك ففتح القدس وضم جميع ثغور سوريا ثم ضم بلاد اليمن فأصبحت جميعها مع مصر دولة واحدة

ولما تولى الصالح بن الكامل نجم الدين أيوب أعيدت مكة وأعيدت اليمن إلى الحدود الطبيعية لدولة مصرية واحدة لا تتجزأ

٦ — وفى عهد دولة المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٢) استطاع المعز أيبك التركمانى حاكم مصر أن يحتفظ بفلسطين — غرب نهر الأردن — مع مصر كجزأين من دولة واحدة كما استطاع الظاهر ركن الدين والدنيا بيبرس البندقدارى أن يصبح زعيم الإسلام شرعاً وفعلا .

وقد تابع بيبرس سياسة مصر التقليدية فضم النوبة وسواكن إلى الحدود المصرية ، كما أن فلسطين وسوريا عادتا فأصبحتا مع مصر أجزاء لا تنفصل من دولة واحدة ولم يبق إلا حماه فى يد الأيوبيين

ولما تولى المنصور سيف الدين قلاوون الألفى ثار أحد أمراء المماليك فى دمشق وأعانه بدو الصحارى فهزمهم قلاوون واستعاد دمشق

ولما تولى الأشرف صلاح الدين خليل حكم مصر ففتح عكا ورجع إلى دمشق وزحف من طريق حلب لى قلعة الروم وفتحها ثم عاد الى مصر وتأهب لغزو اليمن .

ولما تولى الناصر محمد بن قلاوون خرج الجيش المصرى الى سوريا وهزم جيوش التتر التى كانت قد استولت عليها وعدت مع مصر دولة واحدة

ولما تولى المنصور علاء الدين على ثار التركمان الذين كانت مصر قد عدت اليهم بحراسة حدود سوريا الشمالية فخرج الجيش المصرى وأخضعهم.

وظلت حدود هذه الدولة ممتدة الى جبال طوروس .

٧ — وفى عهد دولة المماليك الجراكسة « ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ » سار المؤيد أبو النصر المحمودى لاخضاع أمراء التركمان على حدود سوريا الشمالية وضربت النقود هناك باسمه . ولما عادوا الى الثورة خرج ابنه ابراهيم على رأس الجيش المصرى وأخضعهم

ولما تولى قانصوه الغورى الأشرفى بنت مصر اسطولا بحرياً حارب مراكب البرتغال فى البحر الأحمر وهزمها . وكان أمراء المسلمين فى الهند وبلاد العرب قد استنجدوا بالغورى — سلطان مصر — لحمايتهم من اعتداء السفن البرتغالية التى كانت ترغم تجار الهند والصين على توريد بضائعهم الى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح الذى اكتشفه فاسكو ده جاما بعد أن كانوا يوردونها الى مصر عن طريق عدن وجدة وسواكن وكان البرتغاليون يقبضون على السفن التى تدخل البحر الأحمر . وبذلك يقطعون موردا ماليا هاماً من موارد الموانى الحجازية والمصرية فهب الأسطول المصرى لنجدة أولئك التجار المسلمين ـ رغم بعد الشقة بين مصر وبين بلادهم — وظل القتال مستمراً بين مصر والبرتغال الى أن فقدت مصر سيطرتها على البحر الأحمر فقضى على تجارتها مع الهند

٨ — وفى عهد الدولة العثمانية بمصر « ١٥١٧ — ١٧٩٨ » لم يكد على بك الكاشف المعروف بعلى بك الكبير يعلن استقلال مصر حتى ستر جيشاً لضم اليمن ثم ضم سائر شبه جزيرة العرب فأصبحتا مع مصر دولة واحدة لافارق بينهما

٩ — وفى تاريخ مصر الحديث ، بعد انتخاب محمد على باشا والياً على مصر بارادة الشعب المصرى ، تابعت مصر سياستها التاريخية فى الامتداد

الى الحدود الطبيعية . فبدأ محمد على بارسال الجيش المصرى الى الحجاز لاخضاع الوهابيين ففتح مكة فى يناير سنة ١٨١٣ ثم هدأت الحرب فى الحجاز فترة وعادت الجيوش المصرية بقيادة ابراهيم باشا ففتحت الدرعية عاصمة الوهابيين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ و بذلك أصبح الحجاز ونجد ومصر دولة واحدة

وقد أحس محمد على بما أحس به حكام مصر منذ تحوتمس الأول وهو وجوب جعل وادى النيل من منبعه إلى مصبه وحدة سياسية . فسير الجيش المصرى بقيادة ثالث أبنائه الأمير اسماعيل ففتح بربر فى ١٠ مارس سنة ١٨٢١ وفتح سنار فى ١٢ يونيو من نفس السنة . وكان جزء آخر من الجيش المصرى بقيادة محمد بك الدفتردار — صهر محمد على باشا — قد تغلب على سلطان دارفور ودخل الأبيض فى ابريل من نفس السنة واستمر الجيش المصرى بقيادة الأمير اسماعيل فى زحفه فاستولى على فازوغلى فى يناير سنة ١٨٢٢ . وقد بذلت مصر تضحيات جسيمة فى تلك الحرب واستشهد الأمير اسماعيل فى شندى إذ أحرق غدراً فى قصر ملك « شندى »

وقد بلغ عدد القتلى من الجيش المصرى ثلاثة آلاف رجل [١] . والمصريون هم الذين أنشأوا مدينة الخرطوم . وأصبحت عاصمة للسودان باتخاذ خورشيد باشا لها مقراً للحكم . ولا شك أن البعثات التى كان يوفدها محمد على إلى السودان هى التى مهدت فيما بعد لاكتشاف منابع النيل . فلمصر على علم الجغرافية من هذه الوجهة أكبر فضل [٢] وأول رسالة علمية وضعت عن أواسط أفريقية كتبها أحد ضباط الجيش المصرى وهو سليم بك

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية . الجزء الثالث ص ١٨٠ .

(٢) دييران : السودان المصرى فى عهد محمد على — ص ٢١٨ .

قبطان وقد تولت نشرها الجمعية الجغرافية الفرنسية .

وقد تبين محمد على أن الحدود الطبيعيـة التى تحمى هذه المنطقة من الشرق الأدنى يجب أن تمتد إلى جبال طوروس فعمل على ذلك . ولعل أدق وصف لوجوب هذا الامتداد هو ما قرره الدكتور كلوت بك إذ قال « منذ تقرر فى الأذهان أن إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدنية فائدة عامة وجب الاعتراف بأنه لا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بضم سورية إلى مصر . وقد رأينا فعلا أن موقع البلاد الحربى لا يجعلها فى مأمن من الغزوات الخارجية خصوصاً عن طريق برزخ السويس فاذا استثنينا غزوة الفاطميين المغاربة وغزوة الفرنسيين بقيادة بونابارت نجد أن سائر الغزوات جاءت من طريق سورية كغزوة الفرس فى عهد قمبيز وغزوة الاسكندر والفتح الاسلامى وغزوتى الأيوبيين والأتراك وعلى ذلك لا يمكن الاطمئنان إلى بقاء مصر مستقلة إلا باعطائها الحدود السوريه لأن حدودها ليست فى السويس بل فى طوروس » .(١)

وقد صرح محمد على أنه لكى يعطى دولته طابعاً دائماً وحاسماً يجب أن يحمى سوريا من خطر الغزوات ولذلك يجب أن يضم إليها كل المناطق التى يقطنها العرب ، فهؤلاء العرب سيطلبون دائماً مساعدته وهم يميلون دائماً إلى هبة أنفسهم لمصر(٢)

وقد اتضح من جميع تصرفات ابراهيم باشا أنه كان مؤمناً بفكرة إنشاء اتحاد سياسى يجمع بين الأقطار المتاخمة لمصر من الشرق والشمال وهى الأقطار التى تتكلم العربية وتدين غالبيتها بالاسلام . فقد خيل إلى الحكومة الانجليزية أن غرض محمد على وابنه ابراهيم من جعل الحجاز

(١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ٢٣١ .

(٢) Georges Douin : La mission du Baron de Boislecomte : P. 9

ومصر دولة! واحدة ينحصر فى الاستيلاء على نجد والحسا لحماية التجارة المصرية من خطر القرصنة فى شرق البحر الأحمر وأن مصر بذلك لا تعارض فى تعاون الحكومة الانجليزية معها عسكريا فى شرق جزيرة العرب . أى فى المناطق البعيدة عن الشاطىء ، ولذلك كلفت السلطات الانجليزية فى الهند بايفاد من يتفاوض مع ابراهيم باشا على قواعد التعاون العسكرى الذى تمنته الحكومة الانجليزية ووقع الاختيار فعلا على الكابتن فريزر سادلير Sadlier الذى أبحر بالسفينة الحربية الانجليزية Thetis موفداً من قبل حكومة الهند ورست السفينة يوم ٧ مايو عام ١٨١٩ بالقرب من مسقط . وظل الكابتن سادلير يبحث عن ابراهيم باشا فى شبه جزيرة العرب إلى أن استطاع مقابلته فى «بير على» يومى ٨ و ٩ سبتمبر عام ١٨١٩ ولكن المقابلة لم تسفر عن نتيجة . وعاد إلى الهند دون أن يحقق التعاون العسكرى الذى كانت تنشده الحكومة الانجليزية وبذلك ثبت أن ابراهيم باشا كان يأبى إقرار أى تدخل أجنبى فى هذه المنطقة من الكرة الأرضية . (١)

ومما يقطع بايمان ابراهيم باشا بفكرة اعادة ذلك الاتحاد بين الأقطار العربية المتاخمة لمصر أنه بينما كان محاصراً لمدينة عكا سئل عن المدى الذى يعتزم أن يقف عنده تقدم الجيش المصرى فأجاب أن الجيش المصرى سيتقدم ما دام يستطيع أن يتفاهم مع الأقطار التى يغزوها باللغة العربية وربما كانت هذه الخطة — دون أن يقصد — أحد أسرار قوته وقد حققت الحوادث إجابته فقد ضمت سوريا إلى مصر وفى عام ١٨٣٣ تحقق المشروع الذى يعود تاريخه إلى عام ١٨٢٢ . فأثمرت احد عشر عاما من

---

(١) فيليب جريفز من بحث عن « الرحالة البريطانيين فى بلاد العرب فى القرن التاسع عشر » مجلة « المستمع العربى » العدد ١١ السنة الخامسة .

المثابرة والجهود ثمرتها . وهى إنشاء دولة مصرية عربية متحدة [١] .

وقد لاحظ جندى عربى على ابراهيم باشا ذات يوم تحمسه لكل ماهو عربى وسأله بتلك الصراحة التى كان يحب ابراهيم أن يشجعها بين جنوده « كيف تسيئون سمو كم إلى الأتراك فى حديثكم مع أنكم من أصل تركى ؟ » فأجاب ابراهيم بحدة « لست تركيا . فقد قدمت إلى مصر طفلاً ومنذ قدومى غيرت شمس مصر دمى فجعلته عربياً » [٢] وقد يخيل إلى البعض أن هذه التصريحات ربما كانت دعاية سياسية لجأ إليها ابراهيم ليجتذب قلوب العرب ولكن الذى يقطع بأن كل الذين كانوا يعملون معه كانوا مؤمنين بنفس العقيدة أن مختار بك ياوره فى حروب الشام — وقد قضى ستة أعوام فى فرنسا وكان يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها — قد صرح للبارون ده بوا لكونت de Boislecomte وهو السفير الفرنسى الذى أوفده الدوق ده بروجلى de Broglie وزير الخارجية الفرنسية باسم الحكومة الفرنسية فى مهمة خاصة لدى محمد على وابراهيم وأصدر إليه تعليماته فى ٨ أبريل عام ١٨٣٣ — قائلاً « إن معظمنا قد ولد فى تركيا ولكن إقامتنا فى مصر قد أعطتنا حق التجنس بالجنسية المصرية . إن القانون الفرنسى يكتفى بعشرة أعوام يستطيع الأجنبى بعدها أن يتجنس بالجنسية

(١) E. de Cadalvène, et V. Barreult : Histoire de la Guerre de Méhémed Alí contre la Porte Ottomane en Syrie et en Asie Mineure, 1831—1833. P. 411,412.

والنص الفرنسى لهذه العبارة هو aussi loin que je pourrai me faire comprendre en parlant l'arabe.

وقد جاء ذلك فى الفصل السادس من هذا الكتاب طبعة ١٨٣٧

وجاء فى كتاب « ابراهيم باشا » تأليف بيير كرابيتيس وترجمة محمد بدران أن ابراهيم بخلع تلك الأقطار العربية كان « يعتقد أنه وضع أساس دولة عربية اسلامية عظيمة قلبها النابض مصر » ص ٤٢ .

(٢) Henry Dodwell : The Fownder of Modern Egypt, P 257

الفرنسية . أما نحن فقد قدمنا إلى مصر ولم نكد نغادر سن الطفولة . ولذلك لم نعد تركاً قط . ولم تبق رابطة تربطنا قط بذلك الشعب الذى لا يترك فى مروره على الأرض إلا الخرائب . إننا الآن ننتسب إلى شعب أنبل وأكثر تنوراً . إلى هذا الشعب العربى الذى سبق أوروبا فى الحضارة وزين تاريخه باقامة المدن المزدهرة والآثار الفخمة التى غطى بها وجه الأرض من جبال الأندلس إلى وادى النيل بل إلى حدود إيران » وكانت فكرة ابراهيم باشا تتجه إلى تحويل الدولة التى أنشأها أبوه إلى امبراطورية عربية صميمة ينتسب فيها الحاكمون والمحكومون والضباط والجنود إلى شعب واحد واعطاء الجنس العربى جنسيته الخاصة . وكيانه السياسى كما أن له لغته الخاصة وأدبه الخاص وتاريخه الخاص . وهذه الفكرة توحى إلى الخاطر نظرية أكثر اقناعاً وأكمل كما أنها تتضمن عناصر البقاء والاستقرار (١) .

ولطالما أيد ابراهيم هذه العقيدة فى تصريحاته المتعددة أمام الضباط الذين من أصل تركى والذين كانوا يعاونونه على النهضة بالجيش المصرى . من ذلك جملته التاريخية التى قالها لهم « اذكروا أننا لا نزيد عن خمسة عشر ألفا من أصل تركى فى مصر » (٢) .

ولقد أثارت هذه العزيمة على بعث الدولة المصرية العربية إعجاب المؤرخين الذين توفروا على دراسة هذه الفترة من تاريخ مصر فقرروا أن الشعب المصرى سرعان ما بدا على أرض وطنه التى استردت شبابها

(١) Georges Douin : La Mission du Baron de Boislecomte : L'Egypte et la Syrie en 1833 : P. 249,250

والسفير الفرنسى الذى تضمن هذا الكتاب مجموعة رسائله هو Charles Joseph Edmond وهذه الفقرة منقولة عن رسالته المؤرخة فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٣٣

(٢) المرجع السابق E. de Cadalvène et V. Barrault : P. 417

شعباً لين العريكة صبوراً . مسالماً ، ولكنه إذا حارب قاتل ببسالة واحتمل العمل بمرح وواجه الأخطار والشقاء غير هياب ولا وجل . مستعداً لاتقان أية صناعة . قادراً على استيعاب العلوم فى سهولة عظيمة (١)

واستمر ابراهيم باشا ينفذ سياسة إعادة هذا الاتحاد السياسى بين مصر والأقطار العربية الأخرى عملياً بحد السيف فحاصر «عكا» وفتحها يوم ٢٧ مايو عام ١٨٣٢ بعد أن طال حصارها ستة أشهر و بلغت خسائر المصريين أربعة آلاف وخمسمائة قتيل . وفتح «حمص» فى ٨ يوليو من نفس العام بعد قتال عنيف . ولمعركة حمص أهميتها الخاصة لأنها كانت أول معركة التحم فيها الجيش المصرى بالجيش التركى فى ساحة واحدة ويعتبر المؤرخون أن المصريين بانتصارهم فى هذه المعركة قد ثأروا لأنفسهم من هزيمتهم فى معركة «الريدانية» أمام السلطان سليم قبل ذلك بأكثر من ثلاثة قرون وأن الانتصار فى هذه المعركة قد رد لمصر سيادتها كاملة وقضى على النفوذ العثمانى فيها(٢) ثم فتح «بيلان» فى ٣٠ يوليو و«قونيه» فى ٢١ ديسمبر من نفس العام . وقد أثار انشاء دولة واحدة من كل هذه الأقطار العربية المتجاورة ثائرة الدول الأوربية ودفعها الى التدخل فيما أسموه «المسئلة المصرية» ولكن محمد على أصر على انشاء هذه الدولة وانتهى الأمر باتفاقية «كوتاهية» فى ٤ مايو عام ١٨٣٣ وهى الاتفاقية التى تقرر تنازل تركيا عن سورية «دمشق وطرابلس وصيدا وحلب والقدس ونابلس» والحجاز ، وبذلك عاد هذان القطران فأصبحا وحدة سياسية مع مصر وعادت حدود هذه

---

(١) المرجع السابق E. ds Cadalvène et V. Barreult : P. 415

(٢) عبد الرحمن الرافعى « تاريخ الحركة القومية » الجزء الثالث ص ٢٤٨

الدولة تنتهى عند جبال طوروس [١]

وقد تحملت مصر فى سبيل إعلائها بفكرة انشاء دولة واحدة من الأقطار العربية المجاورة لها تضحيات جسيمة . فقد كانت إيرادات سوريا أقل من مصروفاتها فكانت مصر تكمل الفرق من ميزانيتها الخاصة ، وتحققت المساواة بين الجميع فى الضرائب لاتفاوت بين الطبقات والمذاهب وأبطلت المصادرات وتقرر حق الملكية وتوطد الامن وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة [٢] ووهب الحكام المصريون الذين ولاهم محمد على على سوريا أنفسهم لتحقيق نهضة هذا الجزء من الدولة التى أعاد محمد على انشاءها فتنسمت بيروت فى عهد الأمير محمود سامى محافظها المصرى « نسيماً منعشاً من الغرب المتمدن فاستيقظت من سبات العصور الوسطى وخطت خطوتها الأولى فى سبيل رقيها الحديث » [٣]

وقد دافعت مصر عن هذه الحدود التاريخية بكل قواها . فكانت معركة « نصيبين » فى ٢٤ يونيو عام ١٨٣٩ بسبب اجتياز فرقة من الجيش

---

(١) وصف المؤرخون هذه الدولة بأنها « امبراطورية واسعة الارجاء . مساحتها تزيد على نصف أوروبا وتزيد ١٥ مرة على مساحة فرنسا. امبراطورية عظيمة تضارع امبراطورية نابوليون وأمبراطورية الفراعنة وأمبراطورية الرومان تمتد من النيل الى الفرات ومن البحر الأحمر الى البحر الأبيض . من ألوية اليمن الى مشارف الشام . من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى . من كعبة المسلمين الى مقدس النصارى الى مبكى اليهود أمبراطورية جمعت اليمنى والحجازى والمصرى والسودانى والعربى والسورى واللبنانى والدرزى تحت راية واحدة وتحت صولجان واحد » — عزيز خانكى — « الذكرى المئوية لواقعة نزيب » ص ١٥ و ١٦ و ١٧ .

(١) محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق : « خطط الشام » الجزء الثالث ص ٥٢ .

(٣) الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية ببيروت من بحث له فى مجلة « الكلية » التى تصدرها هذه الجامعة — المجلد ١٣ ص ١٣٠ .

التركى لنهر الساجور وهو النهر الذى ينبع على مقربة من عنتاب و يصب فى الفرات والذى اعتبرته اتفاقية كوتاهية حداً فاصلاً بين تركيا والدولة التى أعاد محمد على انشاءها مكونة من مصر والحجاز وسوريا ولبنان وفلسطين وقد انتصرت الجيوش المصرية فى هذه الموقعة انتصاراً حاسما بعد أن خسرت نحو أربعة آلاف قتيل وجريح . وتكلل هذا النصر بتسليم الأسطول التركى الذى كان مؤلفا من تسع بوارج حربية كبيرة وستة عشر سفينة حربية أخرى الى الأسطول المصرى مما جعل الدولة المصرية العربية الناشئة التى نالت هذا النصر أقوى دولة بحرية فى البحر الأبيض المتوسط . ولذلك عد يوم « نصيبين » أمجد أيام النصر التى رأتها الجيوش المصرية (١)

وقد تبوأت مصر المنتصرة مكان الصدارة بين الشعوب العربية ونفضت عنها سيادة الباب العالى الذى كادت الجيوش المصرية تهدد عاصمته وأصبحت مصر مركزاً من مراكز القوة والحضارة . مركزاً مستقلا — — بداهة — عن القسطنطينية

ولقد تساءل المؤرخون عن المصير الذى كان يمكن أن تنتهى اليه حياة محمد على لو أنه استولى على القسطنطينية وجلس على عرش آل عثمان وقرروا أن حسن طالع محمد على قد بدأ فى مصر وأن رسالته لم تتحقق إلا بمصر ومع مصر فلو أنه اغتصب عرش آل عثمان لوجب عليه أن يعيد سيطرة هذا العرش على الأقطار العربية وهى الأقطار التى عمل طويلا على أن ينزع عنها سيطرة العثمانيين : كخليفة للمسلمين والبطالة والمدافع عن قضية

---

(١) Weygand : Histoire Militaire de Mohamed Ali et de ses fils T. 2 P. 115 وقد أضاف أن بعض المؤرخين يقارن انتصار ابراهيم فى نصيبين بانتصار نابليون فى « أوسترليتز »

العرب فى الاتحاد تحت سيادة واحدة تضمهم جميعاً[١]

وكان المعقول لو لم تخش الدول الأوروبية بأس هذه الدولة الناشئة أن يترك الأمر بينها و بين تركيا ولكن تلك الدول الأوروبية أبت إلا أن تثير « المسألة المصرية »من جديد فأرسل سفراء النمسا والروسيا وانجلترا وفرنسا وبروسيا مذكرتهم التاريخية فى ٢٨ يوليو عام ١٨٣٩ الى تركيا وبلغ التعنت بمرسليها إلى حد أنهم طلبوا من تركيا ألا تقرر شيئاً فى شأن المسألة المصرية إلا بعد موافقتهم ! وقد تطورت سياسة العنت التى كانت تمليها روح الخوف من الدولة الناشئة التى احتضنت كل الأقطار العربية المتجاورة التى تكون الشرق الأدنى عند ماتولى« تيير» Thiers رئاسة الوزارة الفرنسية إذ كان يرى الإبقاء على مصر وسوريا كدولة واحدة وأن تترك تصفية الخلاف بين مصر وتركيا اليهما وحدهما دون تدخل من الدول الأخرى ولكن بالمرستون — وزير الخارجية الانجليزية وقتئذ — أبى إلا إحباط سياسة «تيير» وانتهى الأمر بعقد معاهدة « لندن » فى يوليو عام ١٨٤٠ وهى المعاهدة التى اقتصرت على ضم فلسطين الى مصر و بذلك سلخت جزيرة العرب وسوريا من الدولة التى أعاد محمد على إنشاءها وقد أجمع المؤرخون على أن أصرار انجلترا على إحباط مجهود مصر فى اعادة انشاء تلك الدولة انما لأنها لحظت أن محمد على باشا كان يطمع بعد ضم البلاد فى احياء الدولة العربية القديمة وارجاع دولة اسلامية عربية قامت على أساس العدل وجارت به الدول المتمدنة»[٢] ولم تصدر هذه الشهادة من المؤرخين العرب فحسب بل جاراهم فيها المؤرخون الانجليز اذقرروا أن عصر المصريين فى سوريا هو

---

(١) المرجع السابق E. de Cadalvène et V. Barreult ; P. 418,438

(٢) الدكتور ميخائيل مشاقة : «مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان» ص١٢٦ .

"مصر الذهبي للمسيحيين [١]

ولا شك أن محمداً علياً كان محقاً فى اعتبار معاهدة « لندن » باطلة حين رفضها ولكن الدول الأوربية تماسكت فى موقفها المتعنت من مصر وتراخى « تيير » فى تأييده لمصر وترك الوزارة للماريشال سول Soull وكان الأسطول الانجليزى قد ضرب سواحل فلسطين واستولى عليها وانتهى الأمر بالاتفاقية التى عقدت يوم ٢٧ نوفمبر عام ١٨٤٠ بين وزير الخارجية المصرية والكومودور شارل بيبير Napier التى تقضى بجلاء الجيوش المصرية عن سوريا

ولما تولى اسماعيل حكم مصر تابع سياسة جده فى الاتجاه جنوباً لإعادة إنشاء دولة تحتضن وادى النيل وقد استصدر لتحقيق هذا الغرض من الباب العالى فرمان ٢٧ مايو عام ١٨٦٦ الذى ضم سواكن ومصوع الى مصر وكانت محافظة مصوع تمتد الى بوغاز باب المندب وأصدر لتحقيق نفس الغرض فرمان أول ابريل عام ١٨٦٩ الذى عهد به الى سير صمويل بيكر :

ا — إخضاع البلاد الواقعة جنوبى جوندوكرو

ب — القضاء على النخاسة

ج — ادخال نظام تجارى

د — فتح البحيرات الاستوائية الكبرى للملاحة

هـ — إنشاء سلسلة من الحصون العسكرية فى أواسط أفريقية [٢]

وقد وصلت الحملة المصرية الى خط الاستواء ورفعت العلم المصرى على

---

(١) Paton : A. History of the Egyptian Revolution نقلا عن كتاب « الذكرى المئوية لواقعة نزيب » للاستاذ عزيز خانكى ص ٥ .

(٢) بيير كرابيتس « اسماعيل المفترى عليه » ترجمة فؤاد صروف ص ٧٢ .

عند كرو Gondokoro يوم ٢٦ مايو عام ١٨٧١ وسميت « الاسماعيلية » نسبة الى عاهل مصر إذ ذاك (١)

وقد أرسل سير صمويل بيكر الى اسماعيل بهذه المناسبة خطاباً ذكر فيه أن مصر قد ضمت جزءاً كبيراً من أواسط أفريقية وأن حدودها أصبحت تمتد الى خط الاستواء (٢)

واستمرت الحملة المصرية فى تقدمها فاحتلت « ماسندى » وأعلنت ضم ولاية أونيورو Onuyoro الى مصر فى ١٤ مايو عام ١٨٧٢

ولقد كان من نتيجة ضم أوغندة الى مصر أن قضى على تجارة الرقيق. وساد النظام وانتشر الاسلام . وكان اسماعيل يحدد لقائد الحملة المصرية الأهداف النبيلة التى سيرّ تلك الحملة للوصول اليها فكتب اليه يقول

« لاتواصل الزحف إلى الأمام . بل استعمر البلاد وعلم السكان واجعل القبائل موالية لك »

وقد كتب سير صمويل بيكر الى اسماعيل يخبره بأن العلم المصرى سيوضع على بعد درجة على الأقل جنوب خط الاستواء بحيث تكون الاسكندرية على بعد ٣٣ درجة شمالا كما أخبره فى نفس الرسالة ان ملك أوغندة اعتنق الدين الاسلامى وانه بنى جامعاً وسيشرع فى بناء مدرسة (٣) وقد ظل سير صمويل بيكر مديراً لمديرية خط الاستواء الى أن عاد الى القاهرة يوم ٢٦ مايو عام ١٨٧٣

---

(١) Sir Samuel Baker : Ismailia T. 1—P 248

(٢) بيير كرابيتس — المرجع السابق ص ١٦ نقلا عن الملف ٧٢ — ١٠ محفوظات سراى عابدين .

(٣) المرجع السابق ص ٨٨ و ٩٨ نقلا عن نفس الملف .

وقد اقتنع صمويل بيكر — بعد خدمته للحكومة المصرية فى مديرية خط الاستواء — بأن مصر دون غيرها هى الدولة التى يمكنها إدخال النظم العصرية فى الحكم إلى الأقطار الواقعة على جانبى النيل . وأن المدنية لم تصل إلى قلب أفريقيا إلا بعد أن امتدت الحدود المصرية إلى خط الاستواء . (١)

وعين بعده الأمير الاى محمد رؤوف بك مديرا لتلك المديرية وألحقت فى عهده بحكومة السودان إلى أن تولى جوردون هذه المديرية فى ١٩ فبراير عام ١٨٧٤ . وقد نص الخديوى اسماعيل فى الأمر العالى الصادر بتعيينه على جعل مديرية خط الاستواء منفصلة عن السودان فى إدارتها . وحدد هذه المديرية بأنها «تشمل جميع المناطق الخاضعة لسلطة الحكومة المصرية ابتداء من جنوب فاشوده وتشمل أيضا المناطق التى يجب أن تتكون منها » (٢).

وقد تابعت مصر سياستها التقليدية فى نشر المدنية بهذا القطر الشقيق فأدخلت للمرة الأولى فى تاريخه نظام التعامل بالنقود وهو نظام كان يجهله الأهالى إلى عام ١٨٧٤ عندما عودهم جوردون عليه .

ولقد أسفر تولى جوردون ادارة مديرية خط الاستواء عن نتائج تاريخية حاسمة أهمها رسم خريطة النيل الأبيض من الخرطوم إلى الرجاف رسما دقيقا مضبوطاً والقضاء على الرقيق وبسط الأمن والشروع فى شق طريق للملاحة بين غندوكرو والبحيرات الكبرى (٣) .

---

(١) Samuel Baker : المرجع السابق ص ٤١٢

(٢) الأمير عمر طوسون « تاريخ مديرية خط الاستواء » الجزء الأول ص ١٠٨

(٣) المرجع السابق — ص ١٥٤ .

ولم يقتصر الأمر على هذا بل أن جوردون — كما كم لمديرية خط الاستواء من قبل الحكومة المصرية — أوفد الكولونيل شايى لونج بك — وهو ضابط أمريكى التحق بخدمة الجيش المصرى — إلى ملك أوغندة فعقد مع ملكها معاهدة نص فيها على قبوله حماية مصر لمملكته وقد أرسلت هذه المعاهدة إلى اسماعيل فأبلغها إلى الدول وأعلن أن جميع الأقطار المحيطة ببحيرتى البرت نيانزا وفيكتوريا أصبحت وحدة لاتتجزأ من مصر [1] وقد عقدت هذه المعاهدة فى عام ١٨٧٤ اذ أن لونج بك قابل ملك أوغندة للمرة الأولى يوم ٢١ يونيو من ذلك العام . وقد تبين أثناء هذه المقابلة مبلغ التوحش الذى كان سائداً فى ذلك القطر إذ ذاك عندما أحضر الملك ثلاثين رجلاً وفصل رؤوسهم من أجسامهم زيادة فى الاحتفاء بمندوب عاهل مصر ! وعندما دعاه الملك ليشاهد زوجاته اللاتى بلغ عددهن مائة زوجة ! وقد سهّل مهمته فى عقد هذه المعاهدة ما لمسه من العداوة القديمة بين ملك أوغنده وملك أونيورو وحاجة أوغنده الى حماية مصر لها من اعتداء أونيورو المستمر عليها .

كما أن إدارة مصر لهذه المديرية قد أسفرت عن نتيجة جغرافية عادت على علم الجغرافية بأكبر فضل إذ خطر لجوردون أن يستدعى الرحالة الايطالى « جيسى » Gessi وأن يكلفه بارتياد البحيرة التى عرفت فيما بعد باسم « البرت نيانزا » لمعرفة حقيقة منابع النيل وحقيقه الفيضان .

وقد قام جيسى بهذه المهمه مع فرقة من الجنود المصريين فى شهر ابريل

---

(١) Chaillé Long : L'Egypte et ses provinces perdues P. 25 وقد قرر فى هذا الكتاب أن هذه المعاهدة أودعت فى وزارة الخارجية المصرية ولكن أحد ضباط جيش الاحتلال بعد الثورة العرابيه أحرقها .

عام ١٨٧٥ فكانوا أول من ارتاد هذه البحيرة . وكان العلم المصرى الذى رفرف على السفن المصرية التى مخرت مياه تلك البحيرة هو أول علم ارتفع فى سماء هذه البحيرة (١) .

وتولى مديرية خط الاستواء فى غيبة جوردون الضابط الأمريكى الكولونيل براوت Prout الذى كان ملحقاً بأركان حرب الجيش المصرى وذلك من ديسمبر عام ١٨٧٦ إلى مايو عام ١٨٧٧ فلما عاد جوردون عهد إلى الكولونيل الأمريكى ميسون بك Mason بتكملة ما بدأه الرحالة جيسى من اكتشاف البحيرة التى عرفت فيما بعد باسم « البرت نيانزا » وقد قام ميسون بهذه المهمة باسم الحكومة المصرية عام ١٨٧٧ . وقدّم تقريره إلى مدير مديرية خط الاستواء وذكر فيه « أن هذا المنبع الكبير مخبأ منذ زمن طويل على ملايين من أفراد النوع البشرى . . . وأردت أن أسميه باسم شهير — فلأجل التذكار دائما باسم الشخص الذى توفى أخيراً وحزنت عليه جلالة الملكة قد سميت هذه البحيرة الكبيرة بهذا الاسم «البرت نيانزا» وحينئذ فبحيرة البرت نيانزا و بحيرة فيكتوريا هما منبعا النيل (٢) »وفى ذلك الوقت كانت جمعية مبشرى الكنيسة الانجيلية الانجليزية قد أوفدت بعض مبشريها إلى مديرية خط الاستواء لنشر الدين المسيحى ومن بينهم المبشر فيلكن Felkin الذى جاب أنحاء أوغندة وتبين ظلم ملكها« كباريجا» فكتب يقول«انه لما يؤسف له عدم القضاء على حكم هذا الملك المستبد الغشوم ذلك الأمر الذى كان يمكن أن يتم من زمن. لولا المعارضة الشديدة التى كان يبديها بعض أشخاص فى بلاد الانجليز

(١) الأمير عمر طوسون : « تاريخ مديرية خط الاستواء » — الجزء الأول ص ٣٠٨

(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى المجلد الثانى — السنة الثالثة ترجمة الملازم ثانى مصطفى توفيق .

وهؤلاء الأشخاص هم أولئك الذين يرون بعين الحسد كل امتداد يحدث فى الأراضي المصرية نحو الجنوب »[1] وهـذا يدل على أن سياسة الدول الأوروبية كانت تعرقل منذذلك الوقت مجهود مصر فى إنشاء وحدة سياسية من هذه الأقطار المجاورة لها . ولـكن رغم هذا ظلت الحـكومة المصرية توالى إرسال البعثات إلى أوغندة تمهيداً لانشاء تلك الوحدة وأهم هـذه الرحلات هى رحلة أمين افندى الذى كان طبيباً ألمانياً ثم اعتنق الدين الاسلامى فى تركيا ولما حضر إلى السودان عينه جوردون طبيبا بمديرية خط الاستواء وقد قابل ملك أوغندة فى شهر ديسمبر من عام ١٨٧٧ موفداً من قبل الحـكومة المصرية لانشاء روابط صداقة بين القطرين ثم عين مديراً لمديرية خط الاستواء فى منتصف عام ١٨٧٨، فنظم المواصلات مع أوغندة وأدخل وسائل العلاج الحديثة فى « لادو » التى كانت قد اتخذت كعاصمة لتلك المديرية وبنى مستشفى وصيدلية وعين لهـا صيدلياً لصرف الأدوية للمرضى من الأهالى وأمر — للمرة الأولى فى تاريخ تلك المنطقة — بزراعة القطن لايجاد مادة للنسيج . ولما نشبت الثورة المهدية فى السودان هجم المهديون بقيادة الأمير كرم الله على مديرية خط الاستواء ووصلوا الى محطة «امادى» وهى أقصى محطة فى شمال المديرية يوم ١٧ نوفمبر عام ١٨٨٤ فقاومها الجنود المصريون مقاومة طويلة ولـكنها سقطت فى منتصف شهر ابريل عام ١٨٨٥ فى أيدى المهديين وحاول المهديون بعد ذلك الاستيلاء على ولاية « مكراكا » Makraka المعروفة باسم « نيام نيام » التى تقطنها قبـائل

---

(١) Felkin « أوغندة والسودان المصرى » الجزء الأول ص ٣٢٤ نقلا عن كتاب الأمير عمر طوسون المشار اليه سابقا .

(٢) الأمير عمر طوسون: « تاريخ مديرية خط الاستواء » الجزء الثانى ص ٣٥ و ١٠٩

« ينبارى » Yanbaris وكانت قد ضمت الى مديرية خط الاستواء فى يناير عام ١٨٧٥ . ولكن الأمير كرم الله انهزم فى « ريمو » هزيمة منكرة أمام مقاومة الجنود المصريين الذين دافعوا عن « مكراكا » دفاع المستميت كجزء من أراضى وطنهم .

وكان أمين بك قد توقع نشوب الحرب بين اوغندة و بين اونيورو التى كان ملكها قد أعلن ولاءه لمصر فعين الصيدلى فيتاحسان فى أول يناير عام ١٨٨٦ ممثلا للحكومة المصرية فى « أونيورو » وكلفه بأن يسهل للدكتور « جونكر » الرحالة الروسي اجتياز أوغندة [1] وأن يتفق مع ملك أوغندة على خير الطرق التى يسلكها المصريون الذين انقطعت صلتهم بالحكومة الرئيسية فى القاهرة بسبب الثورة المهدية إذا قرروا العودة الى مصر عن طريق أوغندة ولما شبت الثورة العرابية و بدأ الاحتلال الانجليزى عام ١٨٨٢ أرسل نوبار باشا الى أمين بك — الذى كان قد أنعم عليه برتبة الباشوية — يطلب اليه العودة الى مصر ولكنه فضل البقاء مع جنوده المصريين ولم يكن الرحالة الأمريكى ستانلى هو وحده الذى ستر أطماع مموليه الاستعمارية بالرغبة العلمية المزعومة فى إنقاذ أمين باشا مدير مديرية خط الاستواء المصرية بل شاركه فى ذلك الرحالة الألمانى Karl Peters الذى سافر هو الاخير مع قافلة الى أعالى نهر تانا بنفس الحجة فعثر فى بلدة (كافير وندو) kavirondo على خطاب من ملك أوغنده وجهه الى « جاكسون » ممثل شركة شرق أفريقيا البريطانية The Imberial

(١) قام الدكتور Junker باولى رحلاته الى السودان فى عام ١٨٧٦ وقد سافر اليه مزوداً بتوصية من السلطات المصرية فى القاهرة وقد تعددت رحلاته فى مديرية خط الاستواء على بواخر مصريه بمساعدة المصريين وكتب عن تلك الرحلات كتابه « رحلات فى أفريقية » .

Britis East Africa Company وهى شركة كانت قد تأسست فى ٣ سبتمبر عام ١٨٨٨ لتحقيق أغراض استعمارية مستورة بنشاط تجارى وفى هذا الخطاب يستنجد ملك أوغندة بالشركة ويقبل العلم البريطانى . وقد دخل « كارل » أوغندة وتمكن بمساعدة مبشرى الكنيسة الفرنسية الرومانية الكاثوليكية من عقد اتفاق مع ملك أوغندة يقبل فيه الحماية الالمانية فلم يكد جاكسون يعلم بذلك حتى سارع إلى « منجو » عاصمة أوغندة وحاول استمالة ملكها فلما لم يفلح عاد جاكسون الى شاطىء أفريقية الشرقى وأمر لوجارد Lugard أحد موظفى الشركة بالتقدم الى أوغندة . وأحست الحكومتان الألمانية والانجليزية أن الخلاف سيتفاقم بينهما على تلك المنطقة من مديرية خط الاستواء المصرية فوقعتا اتفاقا فى أول يوليو عام ١٨٩٠ تنازلت بمقتضاه انجلترا لألمانيا عن « هليجولند » بأوربا فى مقابل اعترف المانيا بنفوذ انجلترا فى منطقة منابع النيل . وفى ٢٩ مايو عام ١٨٩٤ عقدت معاهدة جديده بين ملك أوغندة وسير جير الدبورتال Gerald Portal ممثل شركة شرق أفريقية وضعت فيها أوغندة تحت الحماية الانجليزيه . وفى يونيو عام ١٨٩٥ تنازلت الشركة للحكومة الانجليزية عن حقوقها[1] ومن هذا السرد الدقيق للحقائق التاريخية يتضح أن الدول الأوروبية كانت تسلم باعتبار مديرية خط الاستواء جزء من مصر بدليل أنها لم تجرؤ على ارسال حملات عسكرية لاحتلالها بل سترت أطماعها الاستعمارية بستر علمية تارة وتجارية تارة أخرى حتى تمكنت انجلترا من عقد اتفاق أول يوليو عام ١٨٩٠ الباطل مع ألمانيا بشأن جزء من أرض دولة أخرى لاشأن لهما بها ثم من الحصول على موافقة أوغندة على حماية انجلترا

(١) The Encyclopaedia Britannica — كلة Africa — الطبعة ١١ .

لها وهى موافقة لا يعترف بهـا القانون الدولى العام لأنها صادرة من سلطة لا تملك التعاقد باسم الدولة صاحبة السيادة على أوغندة وهى مصر

وكان الخديوى اسماعيل يؤمن كما آمن أسلافه من حكام مصر بان البحر الأحمر يجب أن يكون بحيرة تابعة للدولة التى تتألف من الأقطار العربية التى تدين غالبيتها بالاسلام والتى يتكوّن منها الشرق الأدنى فحصل على تنازل تركيا لمصر عن ميناءى سواكن ومصوع بمقتضى فرمان ٢٠ مايو عام ١٨٦٦ واستقرّت السيادة المصرية على جميع شاطىء البحر الأحمر الغربى إلى بربرة . ولم تكن انجلترا تنظر بعين الرضا إلى هذا الوضع فحاول حاكم عدن الانجليزى أن يعترض على تدخل جمالى بك قائد الأسطول المصرى فى فض نزاع نشب بين قبائل بلهار وبربرة — وهما ميناءان واقعتان على البحر الأحمر — ولكن شريف باشا رئيس الوزارة المصرية كتب فى أول يونيو عام ١٨٧٠ إلى قنصل انجلترا بالقاهرة يؤكد حقوق مصر على تلك المنطقة ولم تكتف مصر بذلك بل عينت ممتاز باشا والياً على جميع ساحل أفريقيا من السويس إلى رأس جردفون . ورفع العلم المصرى على بلهار فى ١٦ يناير عام ١٨٧١ وأراد اسماعيل ألا يدع مجالاً للشك فى سيادة مصر على تلك المنطقة فحصل على تنازل تركيا عن زيلع لمصر فى يونيو عام ١٨٧٥ . وعندئذ تكشفت معارضة انجلترا عن حقيقة أطماعها الاستعمارية فكتب الضابط وود إلى السفير الانجليزى بالاستانة فى ٦ أغسطس عام ١٨٧٥ يقول « إن التنازل عن ميناء زيلع والاستيلاء على بربرة يجعلان ساحل البحر الأحمر الغربى كله فى قبضة مصر ولا ريب أن المناطق التى كانت من قبل مستوحشة لا يستأنس بها أخذ المصريون يصلونها عاجلا بالعالم المتمدن » . وقد اعترفت انجلترة بعد ذلك بحق مصر

فى هذه المناطق فعقدت مع مصر معاهدة فى ٧ سبتمبر عام ١٨٧٧ وقعها قنصل انجلترة العام فى مصر عن الجانب الانجليزى وشريف باشا عن الجانب المصرى وتقرر فيها أن جميع ساحل أفريقيا الشرقى لغاية رأس جردفون تملكه مصر (١)

وقد شهد الانجليز أنفسهم بعد معاهدة ٧ سبتمبر عام ١٨٧٧ بأن الادارة المصرية بساحل أفريقية الشرقى قد وفقت غاية التوفيق فكتب القنصل الانجليزى فى الصومال بتاريخ ٦ يونيو عام ١٨٨٤ يقرر أن المصريين أنجزوا فى بربرة من الأعمال العامة ما يصح أن تفاخر به أية إدارة » ولم يعد هناك أدنى شك فى أن الصومال قد أصبح جزءا لاينفصل من الدولة المصرية برغم المحاولات الاستعمارية التى بذلت لتحوير هذا الوضع الدولى إلى حد أن ممثل انجلترة فى عدن كتب فى ٢٤ ديسمبر عام ١٨٨٤ يقول « يجب أن نعترف بأن العرب فى خليج عدن سواء أكانوا مستقلين أو تحت الحماية الانجليزية أو الفرنسية أو الايطالية يرفعون فوق سفنهم وفى معظم الأحايين فوق منازلهم ومقابرهم رايات لايشك الناظر فى أنها مصرية » (٢) .

وقد أجمع المؤرخون على « أن ضم زيلع و بلهار وبربرة وساحل أفريقية الشرقى حتى رأس جردفون إلى الدولة المصرية قد أثمر نتائج رائعة لم يحققها أى احتلال أوروبى آخر فى أفريقية» (٣) وكتب الرحالة الألمانى هلد براند

---

(١) فيليب جلاد — قاموس الادارة والقضاء الجزء ٢ ص ٤٩٠ .

(٢) الدكتور محمد صبرى — مصر فى أفريقيا الشرقية ص ١٦ و ١٩ و ٤٥ و ٤٩ .

(٣) Paulitschke: Le Harar sous L'administration Egyptienne نشرة الجمعية الجغرافية الخديوية — مارس عام ١٨٨٧ .

إلى رئيس الجمعية الجغرافية المصرية فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٧٥ يقول « لا توجد أمة أصلح — فى اعتقادى — من مصر لرفع مستوى المدنية فى أفريقية[١] » وقد حرص رجال القسم الجغرافى من هيئة أركان حرب الجيش المصرى على أن يشرفوا اسم مصر فى الأوساط العلمية التى كانت معلوماتها الجغرافية عن هذه المنطقة من ساحل أفريقية الشرقى لا تزال ناقصة مبتورة[٢] وقد وضع ضباط هذا القسم خارطة عامة لمصر تسجل جميع حدودها عرضت فى المعرض الجغرافى الدولى الذى عقد فى البندقية عام ١٨٨١ .

ولكن أطماع أوروبا الاستعمارية لم تيأس من بتر هذه الأجزاء من جسم الدولة المصرية فانتهزت فرصة المتاعب التى عانتها مصر عقب الثورة العرابية ووضعت إيطاليا يدها — بموافقة انجلترة الضمنية — على مصوع وموانىء أخرى على شاطىء أفريقية الشرقى وكان ذلك عام ١٨٨٥ ولما تمكن الإحتلال الإنجليزى لمصر من قهر مصر على السكوت عن اغتصاب حقها فى الصومال انتهزت انجلترة الفرصة لانشاء نفوذها على شاطىء أفريقية الشرقى تجاه عدن وعقدت مع رؤساء القبائل فى تلك المناطق عشر معاهدات فى المدة بين أول مايو عام ١٨٨٤ و ١٥ مارس عام ١٨٨٦ سلموا فيها بالنفوذ الانجليزى وهى المناطق التى عرفت فيما بعد باسم الصومال الانجليزى وفى نفس الوقت اتضح أن إيطاليا لم تكتف بما اغتصبته من الأراضى المصرية على شاطىء البحر الأحمر فجارت انجلترا

---

(١) الدكتور محمد صبرى — المرجع السابق ص ٧٦ .

(٢) مصطفى عامر Some Unpublished Egyptian Maps of Harrar مجلة الجمعية الجغرافية الملكية . المجلد ١٩ عام ١٩٣٧ .

فى عقد المعاهدات مع رؤساء قبائل الصومال الذى عرف فيما بعد باسم الصومال الايطالى (١) وهذا الأسلوب الباطل من عقد معاهدات مع سلطات لا تملك حق التعاقد — لأن القانون الدولى العام لا يعترف لها بسيادة تمكنها من هذا التعاقد — هو الذى اتبعته انجلترة فيما بعد مع ملك أوغندة فى ٢٩ مايو عام ١٨٩٤ إذ دفعت شركة شرق أفريقية البريطانية إلى الحصول منه على قبوله الحماية الانجليزية وهو قبول باطل ولا يمكن أن يكون له أثر دولى لأنه صادر من جزء من دولة ذات سيادة هى الدولة المصرية . وهذا الجزء ليس له حق التعاقد باسم هذه الدولة دولياً عن طريق توقيع المعاهدات خصوصا التى تمس صميم سيادة هذه الدولة على أراضيها وتتضمن تعديلا فى حدودها .

والدليل على أن انجلترة كانت تريد الاستئثار بالنفوذ فى حدود مصر الجنوبية الثابتة بمقتضى قواعد القانون الدولى العام والمستندة إلى فتح جيوشها للسودان واكتشاف علمائها لمنابع النيل فى بحيرتى البرت وفكتوريا أنها بعد أن اقتطعت ميناء بربرة وما يحيط بها مما أسمته الصومال الانجليزى فى المدة بين عام ١٨٨٤ وعام ١٨٨٦ وتركت إيطاليا تقتطع ميناء مصوع وما يحيط بها مما سمى فيما بعد اريتريه كما اقتطعت مديرية خط الاستواء التى أسمتها أوغندة عام ١٨٩٤ — الدليل على أن انجلترة كانت تريد الاستئثار بالنفوذ فى حدود مصر الجنوبية أنها أيدت مصر فى موقفها من فرنسا فى حادث فاشودة عام ١٨٩٨ فقد حدث أن وصل الكابتن مارشان Marchand ، وهو ضابط فى الجيش الفرنسى ، إلى فاشوده وهى قرية واقعة على النيل الأبيض فى كردفان أى فى صميم حدود

---

(١) Encyclopaedia Britannica—Africa

السودان المصرى ورفع العلم الفرنسى فأسرع سير هيربرت كتشنر سردار الجيش المصرى إلى فاشودة وطلب إلى مارشان إزالة العلم الفرنسى فلما امتنع رفع كتشنر العلم المصرى إلى جانبه وكان لورد سالسبورى Salisbury وكيلاً للخارجية الانجليزية إذ ذاك فسوى الخلاف باعلان التصريح الانجليزى الفرنسى فى ٢١ مارس عام ١٨٩٩ وهو التصريح الذى سلمت فيه فرنسا بالانسحاب من وادى النيل على أن تحقق أطماعها فى اتصال ممتلكاتها فى شمال أفريقية وغربها ووسطها ببعضها . ولكن هذا التأييد الظاهر لموقف مصر قد سبقه بشهر واحد . وعلى وجه التحديد فى ١٩ يناير عام ١٨٩٩ ارغام انجلترة لمصر على توقيع الاتفاق على الحكم الثنائى على الأراضى الواقعة جنوب خط عرض ٢٢ درجة شمال خط الاستواء . أى السودان . وهو الاتفاق الذى ولد باطلاً لأنه يخالف التحديد الذى أقرته نفس انجلترة للسودان المصرى فى الكتاب الأزرق الذى أصدرته الحكومة الانجليزية عن مصر عام ١٨٨٣ أى بعد الاحتلال الانجليزى والذى اعترف بأن السودان المصرى يحد جنوباً بخط يمر فى بحيرتى البرت وفيكتوريا و يصل إلى رأس جردفون (١) .

وليس هذا الفصل مقام سرد الأدلة على بطلان اتفاقية ١٩ يناير عام ١٨٩٩ ، فما لا شك فيه أن بطرس غالى باشا الذى وقّع هذا الاتفاق عن الجانب المصرى قد أكره إكراهاً على توقيعه كما أن « مصر ذاتها لم تقره برضاها ولم تسلم به إلا مكرهة مقسورة بقوة انجلترة (٢) » وقد ذهب بعض

(١) الكتاب الأزرق عام ١٨٨٣ جزء ١١ ص ٦ .

(٢) حسين رشدى باشا — « بحث فى حالة السودان السياسية » نشر فى ١٧ مايو عام ١٩٢٢ بمناسبة إصرار اللجنة التى ألفت لوضع الدستور المصرى على أن يكون لقب رئيس الدولة المصرية « ملك مصر والسودان » .

المؤرخين المصريين إلى أن بطلان هذا الاتفاق يعود إلى « أن الفرمانات التركية تحرم على الخديو إبرام اتفاقات سياسية وقد اعترفت انجلترة بهذه الفرمانات » وإلى أن هذا الاتفاق « لم يقترن بملكية السلطان العثمانى للسودان وهو ملك له كما أن مصر تابعة للسيادة التركية » (١). ولكن الاستناد إلى هذا السبب للتدليل على بطلان اتفاق ١٩ يناير عام ١٨٩٩ لا يتفق — فى نظرنا — مع الواقع التاريخى الذى سبق أن استعرضناه فى الفصل السابق من هذا الكتاب. لأن مصر كانت ذات كيان دولى مستقل منذ اتفاقية كوتاهية فى ٤ مايو عام ١٨٣٣ وهى الاتفاقية التى عقدت بين مصر وتركيا على أثر انهزام الجيوش التركية أمام الجيوش المصرية. أما اصدار فرمانات بتولية الخديويين الذين تعاقبوا على حكم مصر بعد تلك الاتفاقية فلا ينتقص من سيادة مصر وهو لا يعدو أن يكون اجراءاً شكلياً روعيت فيه العلاقة الروحية التى ظلت تربط مصر كقطر اسلامى بتركيا كدولة كانت إذ ذاك تتزعم الإسلام باعتبار أن عاهلها كان يعد خليفة المسلمين. والحقيقة التى لا شك فيها أن اتفاق ١٩ يناير عام ١٨٩٩ لا يمكن أن يقيد مصر لأن « السبب الذى دعا إلى ابرام هذا الاتفاق هو الاهتمام بمنع تنفيذ الامتيازات الأجنبية فى السودان ووقاية مصر ولو فى هذا الشطر من الأراضى المصرية من مساس نظام الامتيازات بسيادتها » (٢) وهذا واضح من نص المادة الثامنة من هذا الاتفاق التى تنص على أنه « لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه » ولم يكن فى قدرة انجلترة أن تحقق هذا الغرض إذا

---

(١) عبد الله حسين « السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية » الجزء ٢ ص ٥٢.

(٢) حسين رشدى — المرجع السابق.

اعتبر السودان جزء لا ينفصل من مصر لأن الدول صاحبة الامتيازات كانت ستطالب فوراً بتلك الامتيازات لرعاياها فى السودان . ومقدمة هذا الاتفاق واضحة فى القطع بأن انجلترة لم تكن تقصد الاشتراك مع مصر فى الحقوق السياسية الخاصة بالسيادة بل «وضع نظام مخصوص لأجل «إدارة» الأقاليم المفتتحة وسن القوانين اللازمة لها» .

وليس أدل على عصر السودان منذ أقدم عصور التاريخ وعلى أن كل هذه المحاولات الاستعمارية لفصله عن مصر إنما هى اعتداء على الوضع الطبيعى من اسمه المصرى القديم فان المصريين سموه «نوب» وحرّف القوم هذا اللفظ بعد ذلك إلى «نوبه» أو «نوبيا» و «نوب» بالمصرية تعنى الذهب فبلاد النوبة تعنى بلاد الذهب أو بلاد الكنوز كما يسميها أهلها الحاليون

ولكن تصريح ٢١ مارس عام ١٨٩٩ لم يقض على الخلاف بين فرنسا وانجلترة نهائياً فعاد يتجدد . واستدعى الأمر فى عام ١٩٠٤ توقيع سلسلة اتفاقات بين وزير الخارجية الانجليزية المركيز لانسدون Lansdowne وسفير فرنسا فى لندن مسيو بول كامبون Paul Cambon ذكر فيها بشأن مصر أن الدولتين اتفقتا على أن النية قد انصرفت إلى عدم تغيير الحالة السياسية التى نشأت من الاحتلال الانجليزى لمصر وأن فرنسا لن تعارض عمل انجلترة فى مصر بطلب تحديد وقت معين ينتهى بعده احتلالها لمصر !

وهذه الاتفاقات التى وقعت فى ٨ ابريل عام ١٩٠٤ تحسر القناع عن الأطماع الاستعمارية وتظهر بجلاء خشيـــة الدولتين الأوربيتين الاستعماريتين — انجلترة وفرنسا — قيام دولة متماسكة الأجزاء تشمل مصر والأقطار العربية المجاورة لها . وقد تجلت هذه الخشية — مع مزيد الأسف — عندما قسمت بعض الأقطار العربية ، التى كانت على مدى

التاريخ أجزاء من الدولة المصرية العربية تقسيماً مرتجلاً لم تراع فيه أية اعتبارات تاريخية أو جغرافية أو جنسية فوضعت فلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب الانجليزى وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى .

١٠ — ولكن كل هذه الجهود التى بذلها ساسة الدول الاستعمارية فى خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم تقض على شعور الأقطار العربية التى تدين غالبية سكانها بالاسلام بواجب الاندماج فى اتحاد يجمعها ويشركها فى الأسرة الدولية كوحدة سياسية . وقد لمس هذا الشعور جميع المستشرقين الذين توفروا على دراسة هذه الأقطار العربية . فمنهم من قرر أن « أمانى العرب لازالت متماثلة وأصبح مشروع التفاهم المشترك بين فروع دوحة الأسرة العربية العظيمة بقصد التحرر من ربقة ممقوتة يظهر بوضوح يوماً بعد يوم . . والاضطرابات التى هزت الشرق هزات عنيفة فى السنوات العديدة الماضية ، ليست مجرد حوادث انفرادية فى امكان قوة منظمة أن تكبحها وتردها إلى نصاب الأمن فالفكرة العربية قد استيقظت وأخذت تتشكل بل هى جنسية تستعيد مركزها فى مصير الاسلام بعد أن سحقت فى الماضى »[١] .

وقد استمر زعماء الأقطار العربية التى تكون منطقة الشرق الأدنى وفصلتها الاعتبارات الاستعمارية عن بعضها فصلا متعسفا يدعون إلى إعادة إنشاء وحدة سياسية تجمعها فى دوله واحدة . فمنهم من ذهب إلى أنه « إذا أريد بالأمبراطورية العربية مجموعة البلدان التى اتحدت فى لغتها وعقيدتها ومبدأ ثقافتها واتصال تاريخها وتجاور أراضيها فهذه الأمبراطورية موجودة

(١) Denis de Rivoyre — كتاب « العرب الحقيقيون وبلادهم » الذى صدر بالفرنسية عام ١٨٨٤ — من تعليق المستشرق الانجليزى نيقيل باربر فى العدد ٢٤ من مجلة المستمع العربى

وربما كانت هي — وهي بهذا الشكل — أقرب إلى الوحدة المتضامنة منها إلى الحلف المتراخي . أما إذا أريد بالأمبراطورية العربية بلدان خاضعة لسلطان واحد وتشريع واحد وهيئة تنفيذية واحدة فهذه غير موجودة طبعا ولكنها يقدر لها الوجود متى اشتدت فيها أنواع الاتحادات المعنوية المذكورة أولا »[١] وقد تحدث نفس صاحب هذا الرأي عن الروابط المعنوية التي تربط مصر بالشام فذكر أنه قد «تغنى بها الكتاب والشعراء وأن مما يؤيدها « المصلحة المادية الناشئة عن وجودها على بابي الطريق الذي يربط آسيا بأفريقيا . تاهيك بما في هذين القطرين من الخصائص الطبيعية التي يتمم بعضها بعضاً . ثم من الوجهة المعنوية نحن أمبراطورية شاء الاقليميون الضيقون منا أم أبوا . واذا قدر لنا أن نرى من بغار على تبادل محصولنا وبهش لزوال الحواجز بيننا . فان يوم الأمبراطورية العربية بمعنييه الروحي والمادي لا يكون بعيداً » .

وقد اهتم أكثر من مفكر مصري بهذا الموضوع الخطير الذي يهم كافة الأقطار العربية التي تكوّن الشرق الأدنى . فدعا بعضهم إلى انشاء « اتحاد نيلي » يجمع مصر والسودان والاريترية وأوغندة ونحن وإن كنا نؤيد هذا الشطر إلا أننا يدهشنا شطره الآخر الذي يزعم أن «شعوب الأمم العربية تختلف مصالحها الجوهرية لا باختلاف أطوار شعوبها وحده بل باختلاف مواقعها الجغرافية ومبادئها السياسية »[٢] لأننا أثبتنا في هذا الفصل أن التاريخ القديم والحديث يشهدان شهادة قاطعة بأن المصالح الجوهرية

(١) الدكتور عبدالرحمن شهبندر الزعيم السوري الكبير : من مقال « الأمبراطورية العربية . هل يقدر لها العودة إلى الوجود » — مجلة « الهلال » عدد أبريل عام ١٩٣٩ ص ٦٠ وهو العدد الخاص عن « العرب والاسلام في العصر الحديث » .

(٢) مؤيد أباظه باشا — مجلة « المصور » العدد ٩٤٩ .

للشعوب المجاورة لمصر التى تتكلم العربية وتدين غالبية سكانها بالاسلام كانت دائما واحدة لا تناقض ولا اختلاف بينها وأن هذه المصالح هى التى جمعت بين هذه الشعوب وألفت بينها ، كما أن الاعتبارات الجغرافية لم تكن قط عقبة فى سبيل إنشاء دولة واحدة من أقطار تختلف مواقعها الجغرافية فالولايات المتحدة الامريكية بولاياتها الثمانية والأربعين التى تختلف العشرات منها عن العشرات الأخرى فى الموقع الجغرافى ، والمناخ ، والحاصلات الزراعية . والانتاج الصناعى والتى يقع بعضها على المحيط الاطلنطى والبعض الآخر على المحيط الباسفيكى . والتى يقطنها مواطنون من أصول متباينة بين انجلوسكسونية ولاتينية وسلتية ، يدينون بعقائد دينية مختلفة بين بروستانت وكاثوليك ويهود — هذه الولايات المتحدة الامريكية دليل قاطع على أن تجربة إنشاء دولة من شعوب مختلفة مصيرها النجاح اذا اتحدت المشارب والأهداف واللغة مهما اختلفت العوامل الجغرافية

ودعا البعض الآخر الى انشاء اتحاد مركزى Federal state بين مصر وسوريا ولبنان وفلسطين فقط [1] ونحن وإن كنا نوافق على هذا الشطر إلا اننا لا ندرى لم يقتصر الاتحاد المقترح على هذه الأقطار فقط مع أن الاعتبارات التاريخية التى قدمناها فى هذا الفصل تقطع بأن هذا الاتحاد لم يكن قاصراً عليها بل جمع غيرها من الأقطار المجاورة لها التى تربطها بها روابط اللغة والدين والجنس والمصلحة .

فالرأى العملى الذى ينسجم مع منطق التاريخ هو إنشاء اتحاد يجمع بين الأقطار التى أشرنا اليها فى هذا الفصل . وهذا الرأى لا ندعو اليه

---

(١) الدكتور يوسف قابيل — « التطبيق القانونى للحلف العربى الممكن » مجلة الهلال عدد نوفمبر عام ١٩٤١ وهو عدد خاص عن « العرب والديموقراطية » .

رغبة فى أن يكون لمصر مركز ممتاز فى هذا الاتحاد فان جميع اعضائه ـ فلسطين وسوريا ولبنان والحجاز واليمن والسودان واريتريه وأوغندة ـ سيكون لكل منها مالمصر من الحقوق على أن يحتفظ كل عضو ببرلمانه يسن له التشريع الملائم له . ولكل عضو ميزانيته الخاصة . ولكل عضو حكومته المحلية الخاصة . إلا أن البرلمان الاتحادى فى القاهرة يتكون من نواب وشيوخ يمثلون كافة أعضاء الاتحاد . كل بحسب عدد سكانه . كما أن التمثيل السياسى والقنصلى للاتحاد فى الخارج سيكون موحداً وجيشه واحداً وجنسية مواطنيه واحدة ، ويرى الذين يؤمنون معنا بفكرة هذا الاتحاد من أبناء الأقطار العربية الشقيقة أن موقف مصر إزاء العالم العربى انها ليست فقط جزء منه بل هى قلبه » وأن الحقائق تثبت لنا أن أهل وادى النيل شعب عربى والقول بخلاف ذلك فرار من الحقيقة الواقعة التى لا يمكن تغييرها كما لا يمكن تغيير مجرى النيل بجعله يجرى من الشمال الى الجنوب بدلا من جريه من الجنوب الى الشمال » (١)

واهتم المستشرقون بهذا الموضوع فى الأعوام الأخيرة اهتماماً كبيراً فعقدوا مؤتمراً خلال شهر يونيو عام ١٩٤٢ فى جامعة شيكاغو ألقيت فيه عدة محاضرات عن الشرق الأدنى وقد تحدث فيه الاستاذ كوينسى رايت Qnincy Wright الاستاذ بجامعة شيكاجو فذكر أن أقطار الشرق الأدنى تحتوى على كميات كبيرة من زيت البترول كما أنها تنتج مقادير وافرة من محاصيل البلاد الحارة وان هذا الثراء هو الذى جعلها مسرحا للتنافس السياسى بين الدول العظمى وتحدث الكونت سفورزا Sforza فقرر « أن

---

(١) الدكتور يوسف هيكل ، حاكم صلح مدينة نابلس بفلسطين ، كتاب « نحو الوحدة العربية » ص ٣٤ و ٣٥ .

الشرق الأدنى لم يعد بمثابة منطقة مستكنة بين أوروبا وآسيا تتحرك دوله وقبائله بأهواء الدول العظمى »

وتحدث الأستاذ جيب Gibb مسلم بأن اتجاه الأقطار العربية إلى إنشاء جيش واحد تحت هيئة أركان حرب واحدة وإلى توحيد السياسة الخارجية معقول وعملى جدا .

إن إعادة انشاء دولة واحدة من أقطار الشرق الأدنى فى شكل « اتحاد مركزى » يتفق مع الاتجاه الدولى الجديد الذى نشأ بسبب الحرب الأخيرة من جمع الشعوب التى تربطها بعضها بالبعض الآخر روابط اللغة والدين والجنس فى وحدات إقليمية ، وفى يقينى أن مفكرى هذه الأقطار الشقيقة إذا آمنوا بهذه الفكرة — كما أؤمن — فان كل عقبة تبدو الآن كأداء فى وجه هذه الدولة المنشودة ستتلاشى ، لأن أية عقبة يجب الاتعيق أحياء مجد تاريخى هو كل مايزهو به أهل هذه الأقطار على أهل سائر أقطار العالم